خطبة بعنوان: مراتب الكمال

يوم الجمعة: ٠٤/٠٣/١٤٤١هـ لفضيلة الشيخ الدكتور/ عبد العزيز بن أحمد البداح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد...

فيا أيها المسلمون...يطلب الناس مراقي الفلاح، ودرجات النجاح، ويطلبون معالي الكمال، ومظاهر الجمال مما يزيدهم مكانةً وشرفًا ومنزلةً وفضلًا.

أيها المسلمون... إن الكمال الحقيقي، والشرف الظاهر، والسؤدد الكامل في التزام الدين، والتحلي بالحكمة، والتخلق بالمروءة. فمن حاز هذه الثلاثة فقد أوتي خيرًا عظيمًا، وفضلًا كبيرًا، وتبوأ المكانة العليا، والمنزلة الجلَّى في الدنيا والآخرة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

أيها المسلمون... إن الدين يجمل الظواهر، ويزكي البواطن، ويطيب الحياة، ويصلح الأحوال كما قال تعالى ممتنًا على عباده المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:١٦٤]، وقال جل وعلا في الآية الأخرى في معرض الامتنان على عباده المؤمنين: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الجمعة:٢]، وهذا الدين اصطفاء لمن أراد الله كماله وهدايته، واصطفى الله تعالى نجاته وسؤدده كما قال الله عز وجل: ﴿...وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور:٢١]،وإذا استقر أهل الجنة في الجنة أقروا باصطفاء الله لهم، واختياره الخير في حقهم﴿...وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ...﴾[الأعراف:٤٣]

أيها المسلمون ... وسر الصلة بين الكمال وبين الدين أن الدين حياة ونور. حياة يحيي الله تعالى به المؤمن، ونور ينور الله به المؤمن وينير به ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام:١٢٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى: ٥٢] ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٢] ولهذا كله فلا كمال، ولا جمال، ولا رقي، ولا سؤدد، ولا شرف في الدنيا والآخرة إلا بالدين، ولن يتحصل العبد على ذلك بالتجرد من شريعة رب العالمين.

أيها المسلمون... ويزداد العبد كمالًا إذا رُزق حكمةً ورشدًا، وجُنِّب سفهًا وحمقًا ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[البقرة:٢٦٩] ، قال سفيان بن عيينة: "كان يقال أفضل ما يؤتى العبد في الدنيا الحكمة، وأفضل ما يعطى في الآخرة الرحمة". فإن الحكمة تحمل صاحبها على فعل ما يُحمد أثره، ويطيب في الناس خبره، ويؤمن في العواقب ضرره، وإذا أراد العبد أ ن يستقيَ الحكمة، وأن يأخذ الرشد فعليه بالنظر في الكتاب والسنة، والتفقه فيهما، والنظر في سير أئمة الرشد، والحكمة، وتقدير العواقب، والنظر في المآلات، وتغليب المصلحة، والتريث عند النظر في القرارات، والأحوال، والوقائع.

أيها المسلمون...ويزداد العبد كمالًا إذا تحلى بالمروءة، وتجمل بالرجولة فهي تحمله على فعل ما يجمل ويزين، وترك ما يقبح، ويشين، روى الطبراني أن النبي ﷺ قال: ((إن الله يحب معالي الأمور، وأشرافها، ويكره سفسافها)).

أيها المسلمون... لقد خلق الله الخلق، فاختار طائفةٌ منهم الكمال، والسؤدد، والشرف في الدنيا والآخرة بالتزام الدين، والتحلي بالمروءة، والتخلق بالحكمة فنالوا خيرًا من ذلك، واختارت طائفةٌ أخرى السفل في الدنيا والآخرة بالتجرد عن الدين، ومجانبة الحكمة، والوقوع في الطيش حتى نالوا عواقب ذلك ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ* ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ*إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[التين:٤-٦]

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وتقبل الله مني ومنكم تلاوته إنه هو السميع العليم أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه من كل ذنب إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله تعظيمًا لشانه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا...

اعلموا أن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، وعليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة، ومن شذ شذ في النار – عياذًا بالله

واعلموا أن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته، وثلث بكم أيها المؤمنون فقال جل من قائلٍ عليمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[الأحزاب:٥٦]

اللهم صل وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الأربعة الخلفاء الأئمة الحنفاء أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعلي، وعن الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعنَّا معهم بمنك وكرمك وجودك وإحسانك يا رب العالمين.